

« أيها الشرير ! » وأنت تذرف الدمع

أمام كل الناس !

يا يوم الثأر والعقاب !

حين تعرض ابنك الحبيبة نفسها ، عاهرة صفيقة ،

ملكنتها الرغبة العارمة ، وسكرت من الخمر ،

وأخذت تهبهم لك بكل قميص الزنا

الذي ارتكبت ...

هذا هو ثأرنا !

فليعش ثأرنا

نرثه جيلا بعد جيل !

وإذا كان من الصعب أن نسمي مثل هذا السبب شعرا ، إلا أنه في الوقت ذاته يبين لنا بوضوح وجللاء الجانب اليهودي القبلي من شعر تشرنخوفسكي .

ومن أشهر قصائده اليهودية ، قصيدة « باروخ المغنسي » ، وهي عبارة عن مونولوج طويل يناجي فيه بطل القصيدة قبر زوجته ، محدثا إياها عن أتراحه وأوجاعه واحقادها ، وتدور حوادث القصة في العصور الوسطى حينما تمر الحملة الصليبية الأولى على بلدة مغنتسيا على نهر الراين ، ويقوم الجنود بقتل بعض اليهود ويحملون البعض الآخر على اعتناق المسيحية ، وكان من بين الفريق الأخير يهودي يسمى أوري ، وحسب الوقائع التاريخية نعرف أن الندم قد تملك أوري بعد فعلته هذه ، فقتل ابنتيه ، ثم أنتحر بأن أحرق نفسه ، ولكن تشرنخوفسكي غير هذا الجزء من القصة جاعلا منها قصة ثأر واستشهاد ( البطل والشهيد بدلا من الضحية ) ، فغير اسم أوري إلى باروخ (المبارك) ، ثم حوله إلى بطل يقوم بأضرام النار في الدير والمدينة ، وتهلك أبناته أثناء الحريق . والقصيدة طويلة للغاية ، لذا فسنبكتفي بترجمة بعض المقتطفات منها ، عارضين لها بالتحليل : تبدأ القصة بالحديث عن هذا الموضوع الشائع المتكرر في كل الأدب العبري ، اضطهاد اليهود واستشهادهم :

في الشوارع تجري جموع الفلاحين والحرفيين ، رجال على الخيول ،

أنات الموتى ، وبكاء الأطفال ، أصوات النساء يلتمسن الرحمة ،

الأواني المحطمة ، والملابس المهللة والدماء تجري فوق الطين كالماء ،

وصيحات تملأ الروح بالرعدة : فلنضربهم حتى الموت .

في وسط هذا الهرج والمرج ، ينقذ باروخ جسده بأن يعتنق المسيحية . ولكن مأساته كما يراها هو ليست مأساة فرد وقع ضحية اضطهاد الأغلبية ، بل هي مأساة الشعب اليهودي ككل ، ولذا تفقد المأساة حدثها بل عمقها الإنساني ، وتتحول إلى صراع بين كتل مجردة : اليهود والجوييم :

حينئذ لعنت شعبي ، إسرائيل ، ضرع أمي ، مربيتي ،

الهي ... وكل مقدسات أبي بصقت عليها لاعنا !

بعد بؤسه الجماعي يتذكر باروخ بؤسه الفردي ، ولكنه حتى في هذه اللحظة ، كل ما يوجعه أنه يسجد لآلهة غريبة ، وليس لآله قبيلته المؤلف لديه :

حينئذ لعنت كل آلهي ، وخنقت كل كياني ،

أقول « أبي » للغريب ، وأقول « أمي » للغريبة ،

وأخذت عهودا على نفسي لآله غريب لا اعرفه ، ولا اشعر نحوه بأي ولاء .

ثم انحنيت له ولكل قديسيه .

إن ما يؤلمه ليس مأساته كاتمان وكفرد ، بسلكيهودي اضطرت للانسلاخ عن جماعته ،